القديس الياس وأنتدب لمشروعات مهمّة فقلح فيها مثل بناء كنيسة في الاسكندرونة وفي قونية وغيرها وسافر الى رومية مع المطران بولس حكيم . وقد رُشح للاسقفيّة حين وفاة هذا الاخير . واخيرًا بعد وفاة المطران جرمانوس الشمالي سُقف على حلب من يد البطريرك يوحنا الحاج في ٢٢ اذار سنة ١٨٩٦ فدعي باسم يوسف وسعى بامور خطيرة كاصلاح مطبعة الطائفة وتزيين الكنيسة الكاتدرائيّة واقامة مذبحها الكبير فضلًا عن القائه الخطب والمواعظ وحرصه على احكام الطقوس الكنسيّة . وقد نال من انعامات جلالة مولانا السلطان الاعظم الوسام المجيدي العالي من الطبقة الثانية وفّقهُ الله لاتمام ما باشر به من المشروعات الطائفيّة العظيمة . ومن احبَّ مراجعة ترجمة سيادته مطوّلة يجدها في برنامج اخويّة القديس مارون للهمام يوسف افندي خطّار غانم (ص ٦٩—٧٧) (تحت سلسلة الابرشيّات المارونيّة المقرّرة من المجمع اللبنانيّ)

قلوب الامهات

رواية بقلم الشاب الاديب سليم ايوب النحوي احد طلبة مدرسة الحكمة

هناك ... حيث الشمس تغرب عن مواقع العين وتحتجب تحت كلل ستار البحار وحيث جبال النور فسيح تختلف بين اخضرار الارض وزرقة السماء . هناك في ذرى تلك القُنن الجرداء وسط شعاب تلك الصخور بَنت انثى العقاب وكرها المنيع ما بين الادغال والاشواك والشجار الراتنج الباسقة الكثيفة . ففي صباح كل يوم حين كانت تلقي الغزالة لعابها على تلك الحزون وترسل اسلاك اشعّتها الذهبيّة على تلك الرؤوس المصفحة بالجليد كانت انثى النسر تسود وترتفع في الجوّ الفسيح الى حدّ يكلّ عنهُ الطرف البشري واذ ذاك كانت تخترق ببصرها طبقات الفضاء صاعدةً فوق تلك الوديان التي اقرّت لها بالسيادة فكانت تميّز كل ما يجري في منعطف سفحها حتى اخر متحرّك يختلج بين الاعشاب فترقب فريستها وتتبعها ثم تنقضُّ عليها باسرع من وميض البرق فتنتشلها بمخالبها وتعود ... وطالما شهدت تلك القمم معارك شديدة وصدمات قويّة بين الطائر والفريسة وثيابها لم تزل ملطّخة بدم القنيص السائل ...

فهي صباح ما بعد معاناة مشقّات جمّة في طلب صيدٍ جديد اوتْ الى وكرها وهي تحمل ايلًا رضيعًا لتعول بهِ فرخها. لكنها ما اوشكت تنتهي اليهِ حتى صفّقت بجناحيها جزعًا وعلا صفيرها الذي دوت لهُ تلك الاصقاع مكدّرًا ذلك السكون العميق اذ عاينت لمّا اقتربت ان وكرها قد خرب وانَّ فرخها الذي سهرت على نشأتهِ وحمايتهِ حتى ترعرع واصبح يرفرف قليلًا باجنحتهِ كانت قد امتدّت اليهِ ايدي المعتدين فانتزعتهُ من مأواه وحالت بينهُ وبينها

فحلّقت تلك الأمّ التي شعرت اذ ذاك بعاطفة حنوٍ تحترق احشاءها الى اعالي القبّة الزرقاء كي لا يُسمع دويُّ صفيرها الحزين واخذت تسرّح ناظرها بصرها وتستطلع كل ما تحتها . واذا بصيّادَين كانا قد قطعا غابةً كثيفة واخذا بالسير وسط الحقول الى منزلهما وكان احدهما يحمل على عاتقهِ قفصًا فيهِ طائر صغير قد اسره . فعرفت الام ابنها رغمًا عن المدى الشاسع وجعلت تتأثر الصيّادين دون ان تحوّل طرفها عنهما ... وعاينت انهما قد ادركا منزلهما وحلّق حولهما كل اهل الدار ليعاينوا ذلك الاسير الحقير. فبسطت تلك الام جناحيها للهواء واخذت تحوم في اعالي الفضاء ما بين الشمس والغيوم وهي لا تغفل دقيقةً عن وحيدها . ولما ادجت الظلماء واسدل الليل ستر لوائهِ البهيم على تلك الاصقاع سقطت رويدًا رويدًا حتى وقفت على فناء المنزل فقضت اناءه ليلها مستيقظة تئنّ ... وسمع القوم صراخًا فجًّا لم يعرفوا لهُ مخرجًا

طلعت الغزالة وانتشع جلباب الظلام وصعدت تلك الام الى مرصدها الفلكي وسط السحاب. وقد بسطت جناحيها دون ان تحوّل نظرها عن باحة الدار واذا باولاد الصيّاد خرجوا يلعبون فاعدّوا صندوقة عريضة صنعوا منها قفصًا كبيرًا نصبوه في وسط الساحة ثم اتوا بالفرخ فوضعوه فيهِ وقضوا ساعات في ملاعبة الاسير حتى اخذهم الملل وانفرط عقد اللاعبين وخلت الساحة وتُرك القفص معتزلًا

انصف النهار واستوت الشمس في رابعة السماء غير ان سيّدة الهواء ما برحت ساهرة على ابنها دون ان تشكو كلالًا او تعبًا (ولعمري لم تُخلق قلوب الامهات لتشتكي الما في حبّ بنيها) فكانت تراه في داخل سجنه الضيق يرغي ويزبد حنقًا ويحاول ان يتملّص من اعتقالهِ المضني فتارةً يقاوم بمخالبهِ الخشبات وطورًا يبرز رأسهُ

او احد جناحيهِ من خلال العوارض ويصفر صفرة اليأس والقنوط كأنهُ يلتمس مخلصاً وليس من مجيب. فكانت مساعيهِ الباطلة تزيدهُ غضباً وهيجاناً

مالت الشمس للمغيب ولم ترَ الراصدة احداً يجول في الساحة فخافت على وحيدها وادركت انَّ في الامر سرًّا فزادت تيقظاً. وبعد مضي قليل من الوقت وكانت قد خفَّت وطأة حرارة الشمس وبسطت الاشجار ظلالها ابتدأ الاولاد يخرجون ويبادرون من البيت للقفص وقد داروا حولهُ كالهالة. وخرجت امرأة احد الصيادين ايضاً وهي حاملة على ذراعيها طفلها الصغير ثم قطتهُ ووضعتهُ بالقرب منها على الخضرة واخذت تغسل لهُ قطع ثيابهِ ... صبَّت الماء بالاناء واذا بطيفٍ سرى وخيال انساب من فوق رأسها تبعتهُ صفقة قويَّة. فهلع قلب الامّ جزعاً ورفعت رأسها مذعورة لترى ما الامر فنظرت طيرًا ضخماً اسفَّ على وجه الارض ثم عاد نحو العلاء وقد خطف ابنها بمخالبهِ فوقفت دون ان تلقي الخرقة من يدها المتجمدة وقد جمد نبض الحياة في جسمها فومقت الطائر هنيهةً كانت على قلبها اطول من احقاب واجيال ...

عندئذٍ وهي غائصة في لجة تلك الاحزان والدمع ملءُ عينيها عنَّ لها فكر صائب هزَّ اوتار جسمها كسلكٍ كهربائي فصدت الى إجرائهِ وبادرت فقتحت القفص لكن فقد رشدهُ وقبضت على فرخ الطائر بكلتا يديها وهي تئنُّ وتصيح من صميم فؤادها ثمَّ رفعتهُ فوق رأسها دون ان تشعر بوخزاتهِ التي كانت تدمي سواعدها وتخدش وجهها. ولحظت انثى العقاب ذلك منها فتوقفت عن الطيران وتمكنت امّ الطفل ان ترى ابنها ما بين مخالب الطائر القوي. وكأنَّ قلبي هاتين الوالدتين قد تناجيا في ذلك الحزن العظيم والحسرة المحرقة ففهمت كل منهما ما يكنُّهُ قلب الاخرى وتعاهدتا على شروط التسليم. فاخذت الام الطائرة تنزل قليلاً قليلاً حتى لامست الخضرة وقد تركت الطفل عليها واطلقت المرأة من يديها الفرخ الاسير وسقطت مغشيًّا عليها قرب ابنها الذي امتلكتهُ يد ان يئست من لقائهِ

وكان اذ ذاك الصيَّاد نائماً فسمع ضوضاء في باحة الدار فاسرع كالبرق الى بندقيتهِ فرأى امرأتهُ على الحضيض والعقاب تفسح في مجال طيرانها فما كان منهُ الَّا ان اطلق عليها سلاحهُ فوقعت جثَّة هامدة تخبط بدمها بينما كان فرخها يقطع المسافات من فوق رؤوس الاشجار بطيرانهِ باسطاً جناحيهِ في مفاوزهِ الجويَّة التي اشترتها لهُ امهُ بدمها

يا رعى الله قلوبَ الامهاتْ وحماها من اذًى في العالمينْ
فهي وِرْدٌ لجميع العاطفاتْ وهي في الدنيا عزاء للبنينْ
تمزج الحبَّ لهم باللبنِ

تبذل الروح لهم دومًا وما هي في الحب لهم تخشى الحمامْ
تسهر الليل عليهم حينما اعينُ الانوامِ في الكونِ نيامْ
وهي تشقى ان شكوا من حزنِ

انظروها وهي من فوق السريرْ ترضع الطفل بلطف وشغفْ
ان بكى تبكي وان كان قريرْ رقصت من طرب لا من كلفْ
وشدتْ: قه ما اسعدني

اسمعوها اذ تناغيهِ تقولْ انت عوني في حياتي والرجا
انت روحي ونشا قلبي الملولْ يا سروري وعمادي والهنا
يا حبيبي لبتا «تقبرني»

ثمْ بحضني آمنًا يا قمري انت كالبدر فما احلى هواكْ
لكَ روحي لكَ اشهى عُمُري فاذا قلتُ لكَ الدنيا فداكْ
ليس في الاقوام من يبذلني

كلماتٌ صاغها الحبُّ وقدْ عذبتْ في كل قلب قد شعرْ
وتبدَّت من حنانٍ لا يُحَدّ تقرأناها بمكتوب النظرْ
ووعيناها بقلبٍ فطنِ

فنسيم الصبح حينًا ان سرى او اضا برق الحما في الافقِ
هزَّها الوجد اليهِ وجرى دمها من لوعة المفترقِ
وتشظَّى حبها في البدنِ

فابتها ان كان في وسط البحارْ ماخرًا او كان في عرض البلادْ
خفق القلب لهُ بالافتكارْ فتاجيهِ وان شطَّ البعادْ
وهي لا تأوي لمهد الوسنِ

ايها المشهور بالجنس اللطيفْ بل بحُور الخُلد ربَّت الجنانْ
كم لهذا الجنس من قدرٍ شريفْ ومقامٍ صاعد عند الزمانْ
ان أنت اعمالهُ بالحسنِ

ما تصابَينا جزافًا بالطبا او ولعنا شغفًا بالمفقَناتْ
انما نكرم في ذاك البها والدات وقلوب الوالداتْ
رحمةٌ كبرى غذاة الحسنِ

واختتام القول في سلك الخبرْ نورد الآن مقال الحكما
انما الام عزاء للبشرْ صورة اللطف ومرآة العلا
شرف الخلق ومجد الوطنِ